بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اللّهم ربنا لك الحمد ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شئ بعد ، وصلاة وسلاماً على صفوتك من خلقك ، وخاتم أنبيائك ورسلك ، سيدنا وإمامنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، ومَن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

أما بعد ..

فقد كان من قدر اللّه تعالى وفضله علىّ ، أن هيأ لى الاستماع إلى الإمام الشهيد حسن البنا ، وأنا طالب فى السنة الأولى من المرحلة الابتدائية بمعهد طنطا الأزهرى الدينى ، وذلك عام ١٩٤١ وقد تجاوزت الرابعة عشرة من عمرى.

كان « حسن البنا » يتحدث فى مناسبة الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم . ولأول مرة فى حياتى أسمع - منذ عقلت ووعيت - كلاماً جديداً عن الهجرة الشريفة وما يُستخلص منها من دروس وعِبَر ، فطالما سمعتُ فى أوائل المحرَّم من كل سنة من الوعّاظ والخطباء فى قريتنا ، قصة الهجرة وأحداثها ، خصوصاً ما يتعلق بقصة « الغار » ونسج العنكبوت وبيض الحمام .. إلخ . ولكن « حسن البنا » تحدَّث عن الهجرة باعتبارها حداً فاصلاً بين عهدين : عهد تربية الفرد فى مكة ، وعهد إقامة الدولة فى المدينة ، وخصائص

كل منهما ، وكيف نستفيد نحن فى هذه الذكرى ، لنعمل على تكوين الفرد المسلم ، وصولاً إلى بناء المجتمع والدولة .

تركت كلمات « حسن البنا » أثرها فى عقلى وقلبى ، وظللت أترقب وصوله إلى مدينة طنطا (عاصمة مديرية الغربية) فى المناسبات المختلفة ، لأهرول إليه ، وأستمع إلى حديثه بشغف ولهفة ، وإن كنت لم أدر بعد ما السبيل إلى الانخراط فى جماعته ، والانضمام إلى ركب دعوته ؟

حتى كنت فى السنة الرابعة الابتدائية ، ودعيتُ من قِبَلِ قسم الطلاَّب فى شُعبة الإخوان بطنطا للمشاركة فى النشاط الثقافى بإلقاء قصيدة شِعرية فى موضوع إسلامى أختاره .

واستجبتُ للدعوة مستبشراً ، واعتليتُ المنصة لأول مرة فى مركز الإخوان لألقى قصيدة أنشأتها بهذه المناسبة ، لم أعد أذكر إلا مطلعها :

قلبـــى يحس برحمـــة تتـــدفـــق ويرى الملائك حولنا قد أحدقوا !

واعتُبِرتُ من ذلك اليوم واحداً من طلاَّب الإخوان المسلمين ، ثم بعد ذلك أحد أعضاء قسم نشر الدعوة ، الذى يشرف عليه الداعية الكبير أستاذنا البهى الخولى رحمه الله .

كان الإمام حسن البنا فى القاهرة ، وكنت فى طنطا حيث أدرس في معهدها الدينى قريباً من قريتى .. ولهذا كانت فرصة لقائى بالإمام البنا محدودة . وهى مرهونة بزيارته لطنطا أو للمدن القريبة منها ، أو المرتبطة بها مثل المحلة أو كفر الزيات أو دسوق .

وكم كنت معلّق القلب بذلك اليوم الذى أفرغ فيه من دراستى الثانوية بطنطا ، وألتحق بجامعة الأزهر بالقاهرة ، حيث تتاح لى فرصة اللقاء والملازمة والتتلمذ المباشر للإمام البنا ولكن القَدَر كان يخبئ شيئاً ادخره للرجل الكبير ، وهو الشهادة فى سبيل الله .

وما كان أفجعه من نبأ ، نزل علينا كوقع الصاعقة ، حين قرأناه فى الصحف، يوم ترحيلنا من سجن قسم أول طنطا إلى معتقل « هايكستب » ومنه إلى معتقل « الطور » فى ١٩٤٩/٢/١٣ ! نبأ اغتيال الشيخ البنا ، هدية للملك فاروق فى يوم عيد ميلاده !

وهكذا قدَّرتُ شيئاً ، وقدَّر اللّه شيئاً آخر ، وحُرِمتُ التتلمذ المباشر على إمام الدعوة ، ولم يبق أمامى إلا التتلمذ على أفكاره المبثوثة فى رسائله ومقالاته ، وفى تلامذته وأصحابه الذين عايشوه وتلّقوا عنه العلم والعمل ، والفكر والسلوك .

والحق إنى لم أعجب بشخصية حيَّة لقيتها وتأثرتُ بها ، كما أعجبت بشخصية الشهيد « حسن البنا » الذى آتاه اللّه من المواهب والملكات ما تفرَّق فى عدد من الشخصيات ، فقد جمع بين العلم والتربية ، ومزج بين الفكر والحركة ، وربط بين الدين والسياسة ، ووصل ما بين الروحانية والجهاد ، وكان النموذج الحى للرجل القرآنى ، والمعلِّم الربانى ، والمجاهد الإسلامى ، والداعية العصرى ، والمنظِّم الحركى ، والمناضل السياسى ، والمصلح الاجتماعى .

ولم يكن هذا شأنى وحدى ، فإن كل مَن عرف حسن البنا أُعجب به إعجاباً كبيراً ، وكلما زادت معرفته به ، بالاختلاط والمعاشرة ازداد إعجاباً به ، وحباً له ، كما لمستُ ذلك من كثيرين من شيوخ الدعوة وشبابها : البهى الخولى ، ومحمد الغزالى ، وسـيد سابق ، وعبد العزيز كامل ، وفريد عبد الخالق ، وعمر التلمسانى ، ومصطفى مشهور ، وعباس السيسى .. وغيرهم .

ومَن لم يعرف حسن البنا عن طريق المعايشة والمخالطة عرفه عن طريق أثره الفكرى والتربوى والتنظيمى ، وهذا ما جعل الشهيد سيد قطب يصفه بـ « عبقرية البناء » حين شاهد هذه المجموعة الهائلة من الترتيبات والأبنية والنُظم التربوية

والحركية التى ابتكرها هذا الرجل « الملهم الموهوب » كما سماه المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمسانى رحمه الله .

والذى يهمنا هنا أنى وعيتُ ما كتبه الشهيد البنا ، وقرأتُ تقريباً كل ما عثرتُ عليه من تراثه ، وإن كان مما يؤسف له أن هذا التراث إلى اليوم لم يُنشر فى صورة « مجموعة أعمال كاملة » كما حدث ذلك لأمثال جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ رفاعة الطهطاوى .. وغيرهم [1] .

وكان مما شدَّنى وبهرنى من تراث الإمام البنا : رسالته الفريدة المركَّزة التى أرسى بها دعائم العمل الحركى الجَماعى .. وهى « رسالة التعاليم » التى وجهها إلى « الإخوان العاملين » من الإخوان المسلمين ، وقال فى مقدمتها :

« أما بعد .. فهذه رسالتى إلى الإخوان المجاهدين من الإخوان المسلمين ، الذين آمنوا بسمو دعوتهم ، وقُدسية فكرتهم ، وعزموا صادقين على أن يعيشوا بها ، أو يموتوا فى سبيلها .. إلى هؤلاء الإخوان فقط أُوجِّه هذه الكلمات الموجزة وهى ليست « دروساً تحفظ » لكنها « تعليمات تُنفَّذ » ..

أما غير هؤلاء ، فلهم دروس ومحاضرات ، وكتب ومقالات ، ومظاهر وإداريات ، ولكلٍّ وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات . وكُلاً وعَدَ الله الحُسنى » .

اشتملت الرسالة على « أركان عشرة » للعمل الإسلامى المنشود ، أطلق عليها عنوان « أركان البيعة » وذلك لأن كل مَن يريد أن ينتقل من « عضو مشترك »

---

(١) منذ نحو سبعة عشر عاماً لقيت الأخ الأستاذ أحمد سيف الإسلام حسن البنا فى « لندن » وحدثته عن ضرورة جمع تراث الإمام الشهيد ، ونشره كله : رسائل ومقالات وبيانات وأحاديث ثلاثاء ... إلخ . فبشرنى بأنه يوشك أن يفرغ من هذا ويعده للنشر ، ومما يؤسف له أن تمضى هذه المدة ، وينقضى أكثر من أربعين عاماً على استشهاد الإمام البنا ، ولم يستطع ورثته ولا جماعته أن ينهضوا بهذا الواجب !! إن تراث البنا ملك لأجيال الأمة جميعاً ، فيجب نشره وتعميم النفع به .

إلى « عضو عامل » أو « أخ عامل » لا بد له أن يبايع قائد الدعوة أو مَن ينوب عنه على تحمل تبعات هذه المرحلة وأعبائها ، وما توجبه على صاحبها من سمع وطاعة وكتمان وجهاد وتضحية وعمل متواصل وثبات إلى النهاية .

وقد نناقش معنى هذه البيعة ومضمونها فى مقام آخر . ولكن الذى يعنينا الآن من أركان البيعة العشرة هو : الركن الأول « الفهم » .

* * *

● خلاصة مركَّزة لقراءات مطوَّلة :

ومَن قرأ هذه الأصول وتدبرها حق التدبر ، وكان له اطلاع على مصادر العلم والمعرفة الإسلامية أيقن أنها تمثل خلاصة مركَّزة لقراءات طويلة ، ودراسات عميقة فى علوم القرآن والسُنَّة ، والأصولين : أصول الفقه وأصول الدين ، والفقه والتصوف ، مع عقلية هاضمة مستوعبة ، قادرة على التأصيل والترجيح .

ولا غرو فقد كان التكوين العلمى لحسن البنا تكويناً متيناً راسخاً ، وكان أول رفقائه فى مراحل دراسته المختلفة ، وفى دار العلوم ، وكان قارئاً واعياً للقديم والجديد ، عالماً بمذاهب العلماء السابقين من السَلَف والخَلَف ، خبيراً باتجاهات المحدَثين والمعاصرين ، وخصوصاً « مدرسة المنار » التجديدية ، وكان البنا رحمه اللّه أقرب إلى فكر السيد رشيد رضا فى انضباطه من فكر الإمام محمد عبده فى انطلاقه .

ومَن أراد أن يعرف مقدار « الأصالة العلمية » لحسن البنا ، فليقرأ الأعداد الخمسة التى أصدرها من مجلة « الشهاب » التى رأس تحريرها بنفسه ، والتى أراد بها أن يسد ما لمسه من قصور وتقصير لدى أتباعه وجنوده فى المجال العلمى والفكرى ، وقد انشغل هو بتأليف الرجال عن تأليف الكتب .

كان حسن البنا يحرر جملة من الأبواب بقلمه فى المجلة ، فهو يكتب فى « العقيدة » بدءاً بعقيدة الألوهية « اللّه » .. ويكتب فى « التفسير » بدءاً بسورة الفاتحة .. ويكتب فى « علوم الحديث » بدءاً بالرواية والإسناد .. ويكتب فى أصول الإسلام كنظام اجتماعى ، وقد بدأ بالكتابة عن « السلام فى الإسلام » .. ويكتب فى « التاريخ » ، وهو فى جميعها أصيل ومجيد .

ولهذا عُنى العلماء والدعاة من أبناء الحركة الإسلامية برسالة التعاليم ، وبركن الفهم ، أو الأصول العشرين ، مجتهدين فى شرحها وتفسيرها .

وأول مَن حاول ذلك هو العالِم الفاضل ، والواعظ المربى ، الشيخ عبد المنعم أحمد تعيلب ، وقد شرح الرسالة كلها شرحاً موجزاً سريعاً . وقد قام جدال فى ذلك الوقت (أوائل الخمسينات) بين قطبين من أقطاب الدعوة حول هذا الشرح، وهما الأستاذان : البهى الخولى ، وعبد العزيز كامل ، فقد كان الأول يرى ألا يُعطَى الحق لكل واحد فى شرح تراث البنا والتعليق عليه ، وإنما ينبغى أن يكون ذلك بتكليف من الجماعة ، وإلا فسرها كل امرئ بما شاء ، مع أن رسائل البنا تمثل المنهاج الرسمى للإخوان المسلمين ، فلا يجوز أن يتهاون فى أمرها داخل الجماعة . وكان رأى الثانى أن هذه الاتجاه يفرض ديكتاتورية فكرية على الجماعة وعلمائها ، ويُكبِّل حركة الفكر فيها ، ويعطى لبعض أبنائها سلطة بابوية على بعض .

والواقع أن هذا الجدل قد لفت نظرى إلى هذه الرسالة ، وإلى الاهتمام بركن «الفهم » أو بـ « الأصول العشرين » بصورة خاصة ، وتكونت عندى رغبة للتصدى لشرح هذه الأصول شرحاً علمياً موثّقاً مفصّلاً فى ضوء القواعد والعلوم الإسلامية .

وعندما كنا فى السجن الحربى فى أيامنا الأخيرة سنة ١٩٥٦ ، حين فُكَّت عنا بعض القيود ، وأتيح لبعضنا أن يجلس إلى بعض ، بدأتُ الحديث مع بعض

الإخوان حول هذه الأصول ، وحثّني الكثيرون أن أعمد إلى شرحها ، إذا يسر الله لنا الخروج من الأسر ، وهيأ الأسباب للكتابة .

وظل هذا التوجه قائماً فى النفس ، ولا سيما بعد أن أُعرت إلى قَطَر سنة ١٩٦١ ، وبعد أن يئست من العودة القريبة إلى مصر منذ محنة ١٩٦٥ ، وبعد أن كتب إلىّ بعض الإخوة الذين عرفوا هذا التوجه عندى يستحثوننى على الكتابة فى الموضوع ، ومنهم الأخ الصديق عبد الله العقيل مدير إدارة الشئون الإسلامية بالكويت عند ذاك .

وفى صيف سنة ١٩٦٦ ، التقيتُ بمجموعة من الإخوة فى الأردن ، فى صورة مخيم بالمدرسة الإسلامية بمدينة « اربد » ، فى لقاء مطوّل تحدثت معهم عن «الأصول العشرين » ودلالاتها النظرية والعملية ، وكا هذا سبباً فى المزيد من التحريض لى على الوفاء بما وعدتُ به من شرح هذه الأصول .

وبالفعل كتبتُ فصولاً متعددة فى شرح بعض الأصول ، ولكنها لم تكن مرتّبة، وعندما عادت مجلة « الدعوة » القاهرية للظهور مرة أخرى بإشراف الأستاذ عمر التلمسانى أوائل السبعينات ، شرعتُ أنشر فيها بعض ما كنت أعددته من شرح، مبتدئاً بالأصل الأول الذى يتحدث عن « شمول الإسلام » بوصفه نظاماً كاملاً للحياة .. وبعد جملة أعداد توقفتُ عن الاستمرار .

ومنذ سنوات ألحّ علىّ بعض الإخوة أن أنظّم معهم جلسات علمية هادئة ، أشرح فيها هذه الأصول أصلاً أصلاً ، وأتلقى الأسئلة حولها ، على أن يُسجَل هذا الشرح فى أشرطة كاسيت ، وأن توزع فى نطاق محدود ، إلى أن يوفق الله للشرح المكتوب والمنشود ، وتم هذا الشرح مسجلاً فى خمسة عشر شريطاً ، عُنى بعض الإخوان بنشرها فى شتّى القارات ، وعلى نطاق أوسع مما كنت أظن ، ونفع الله بها كثيرين فى المشرق والمغرب [١] . وطلب إلىّ بعض الناشرين أن يفرّغوها وينشروها على ما هى عليه . ولكنى رفضتُ ذلك ، حتى لا يثبطنى ذلك عن إكمال الشرح التحريرى المطلوب .

---

(١) رأيت بعض الإخوة الذين شرحوا « الأصول العشرين » أخيراً ، قد استفادوا من شرحى المسجل واقتبسوا منه : فى العناوين والمضامين والأمثلة والأدلة ، وأشار إلى ذلك بعضهم مشكوراً فى بعض المواضع - ولم يشر آخرون ، سامحهم الله .

وقد ظهرت فى السنوات الأخيرة عدة شروح لهذه الأصول ، أعتقد أن أهمها هو شرح شيخنا الشيخ محمد الغزالى ، الذى سماه « دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين » وهو ما جعلنى أتكاسل بعض الوقت عن إتمام كتابى ، ثم شرح الله صدرى لاستكمال ما بدأتُ به ، إذ لا مانع من تعدد الشروح ، ولكل شيخ طريقته كما يقولون ، وكم رأينا لعلمائنا المتقدمين من شروح عدة لكتاب واحد ، وقد يوجد فى المفضول مالا يوجد فى الفاضل .

وشرحى هذا يهتم بالتأصيل والتفصيل والتدليل ، ويركّز على شرح الأفكار ، أكثر من التركيز على شرح الألفاظ ، وبخاصة ما كان مجهولاً ، أو غامضاً لدى بعض الناس ، أو ينازع فيه منازعون ، أو يشكك فيه مشكّكون ، أو يرتاب فيه مترددون ، مجتهداً أن أرد الأمور إلى جذورها من علومنا الإسلامية الأصيلة ، محتكماً إلى النصوص المحكمة ، والقواعد الضابطة للفهم والاستدلال ، ولا سيما مثل علم أصول الفقه ، وأصول التفسير ، وأصول الحديث . وما تفرّق من الأحكام والمبادئ الهادية فى مختلف المعارف والعلوم . ومستأنساً بأقوال الراسخين من العلماء فى شتّى التخصصات ، ومن شتّى المذاهب ، غير متعصب لمدرسة معيّنة ، ولا لمذهب معيّن . مستمداً العون والتوفيق من الله جَلّ جلاله . فقديماً قال الشاعر :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده !

هذا .. ومن المقترحات التى لقيت قبولاً عندى ما عرضه بعض الإخوة من نشر ما تتم كتابته من شرح هذه الأصول فى صورة رسائل متتابعة ، كل رسالة تتضمن أصلاً واحداً أوأصلين ، ثم ترتب بعد ذلك فى كتاب من جزأين أو عدة أجزاء .

وها أنا أتوكل على الله عَزّ وجَلّ ، وأصدر الرسالة الأولى عن الأصل الأول، داعياً الله تعالى أن يسدد خُطانا ، ويرزقنا التوفيق لإخراج سائر الأصول ، وأن

يغفر لنا ما يزل به الفكر أو القلم ، وأن يتم علينا النعمة بتحصيل أجَرىْ مَن اجتهد فأصاب ، ولا يحرمنا الأجر إن اجتهدنا فأخطأنا . ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنتَ مَوْلَانَا ، فَانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ (١) .

الدوحة فى ذى القعدة ١٤١١ هـ (مايو ١٩٩١ م)

الفقير إلى عفو مولاه
الدكتور يوسف القرضاوى

* * *

(١) البقرة : ٢٨٦ .

obeikandl.com